الشعر الشامي في مواجهة الغزو الصليبي

إعداد

د. شفيق محمد عبدالرحمن الرقب

جامعة مؤتة — قسم اللغة العربيّة وآدابها

توطئة :

كانت بلاد الشام عشية الغزو الصليبي تعاني من الضعف والانقسام ،وكان هذا الضعف هو الباب الذي ولج منه الصليبيون إلى هذه البلاد ، حيث ظهر جيشهم أمام أسوار أنطاكية سنة ٤٩١ /١٠٩٧ ، واستولى عليها سنة ٤٩٢ / ١٠٩٩ مؤسساً بها إمارة ، في حين تقدم جيش آخر صوب الرها ، واحتلها ليقيم بها إمارة ثانية ، بينما اندفعت قوات ثالثة باتجاه بيت المقدس ، فانتزعته سنة ٤٩٢ /١٠٩٩ لتنشيء به إمارة ثالثة ، أما طرابلس فقد ضرب الصليبيون حولها حصاراً محكماً فترة طويلة ، ثم استسلمت لهم ، متخذين منها إمارة رابعة ، فامتدت بذلك ممالكهم« من ناحية ماردين إلى عريش مصر ، لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحمص وحماة ودمشق»(١).

تخاذل الحكام المسلمون آنذاك عن مواجهة هذا المد الصليبي ، ماعدا أتابك طغتكين — ٥٢٢ /١١٢٨ حاكم دمشق الذي نازلهم في غيرما موقعة ، وأوغل في الأراضي الواقعة تحت حكمهم ، غير أن حروبه لم تكن كلها مظفرة . وقد توفي سنة ٥٢٢ /١١٢٨ ، و «خلا الشام من جميع جهاته من رجل يقوم بنصرة أهله ، فلطف الله بالمسلمين بولاية عمادالدين» (٢) .

كانت ولاية عماد الدين إيذاناً بمرحلة جديدة في الصراع مع الغزاة ، فقد جعل وكده تحقيق هدفين كبيرين هما : توحيد البلاد الاسلامية في الشام والجزيرة والموصل ، ومواجهة الصليبيين اعتماداً على قاعدة عسكرية

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر : ٣٢ .
(٢) ابن الأثير : الكامل : ٥٩٤ .

وبشرية واسعة النطاق (١). وقد تمكن عمادالدين بعد جهود مكثفة من توحيد البلاد الاسلامية في الجزيرة ، ثم عبر الفرات وملك حلب وما جاورها ، وبعد ذلك تطلع إلى دمشق وحاصرها ثلاث مرات ، بيد أنه لم ينجح في أخذها (٢) .

وفي هذه الأثناء كان عماد الدين ينازل الصليبيين ، ويشن عليهم الغارات وتمكن في سنة ٥٣٩ /١١٤٤ من توجيه ضربة قاصمة إليهم ، حيث استولى على الرها ، مطيحاً بأولى ممالكهم.

وفي سنة ٥٤٠ /١١٤٦ استشهد عمادالدين وهو محاصر قلعة جعبر ، فخلفه ابنه نورالدين الذي سار على درب ابيه في توحيد البلاد الإسلامية في الشام والجزيرة . غير أنه ارتأى ان قوة المسلمين لا تكتمل إلا بتوحيد مصر والشام تحت قيادة واحدة ، فيتجاذب القطران الغزاة على العدو ، مصر «بعسكرى بره وبحره ، ونورالدين من جانب سهل الشام ووعره» (٣) لذا ارسل نورالدين إلى مصر عدة حملات تمكن في الأخيرة منها من إسقاط الدولة الفاطمية ، وضم مصر والشام في كيان سياسي واحد (٤) .

وكان نورالدين ، وهو يبذل هذه الجهود الوحدوية ، ما ينى يقارع الصليبيين ، مستعيداً منهم كثيراً من القلاع والحصون (٥) .

وفي سنة ٥٦٩ /١١٧٤ توفي نورالدين ، فاضطربت بلاد الشام اضطراباً شديداً ، فتطلع صلاح الدين إلى ملكها ، وأرسل إلى الخليفة العباسي ببغداد رسالة يسأله فيها تقليداً جامعاً بكل ما تشتمل عليه بلاد نورالدين موضحاً له أن والمراد هو كل ما يقوي الدولة ... ويفتح بقية البلاد» « وأنه لا يتمكن

(١) د. عمادالدين خليل : الامارات الأرتقية : ٣٨٧ .
(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق : ٢٧٢ ، ابن العديم : زبدة الحلب ٢ : ٢٥٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ابو شامة : الروضتين ١/١ : ٨٧ .
(٣) ابو شامة : الروضتين ٢/١ : ٦٢٤
(٤) ابن الأثير : الكامل : ١١ : ٣٣٧ .
(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ٢/٣٠١ – ٣٠٢ ، ابن واصل : مفرج الكروب ١ : ١٢٣ ارنست باركر : الحروب الصليبية : ٩٦،د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ٢ : ٦٢٣

من الصليبيين وهو في مصر «لبعد المسافة، وانقطاع العمارة ،وكلال الدواب»(١). بذل صلاح الدين «الجهد في إقامة قانون الجهاد» (٢) ، فنازل الصليبيين في غير ما موقعة ، وأخذ «يصول ويجول بجنده على الفرنج حتى دوخ بلادهم(٣) وتمكن في فترة وجيزة من أن يحرر معظم البلاد الإسلامية منهم وعلى رأسها بيت المقدس سنة ٥٨٣ /١١٨٧ (٤).

أقضّ تحرير بيت المقدس مضاجع الغزاة ، فجهزوا حملة صليبية ثالثة أسفرت عن احتلال الصليبيين عكا من جديد سنة ٥٨٨ /١١٩٢ ، وتوقيع صلح بينهم وبين المسلمين كان من أهم بنوده أن يبسط الصليبيّون نفوذهم على المدن الساحلية من صور إلى يافا (٥).

وفي سنة ٥٨٩ /١١٩٣ توفي صلاح الدين ، فاستعرّ بين أبنائه وذويه صراع على السلطة ، مما أتاح للصليبيين أن يحقّقوا عدداً من المكاسب ، كان من أعظمها احتلال القدس مرة أخرى ، وقد بقيت بأيديهم حتى سنة ٦٤٢ / ١٢٤٤ (٦) .

ظل الأيوبيون سادرين في خلافاتهم إلى أن تمكن المماليك من الإطاحة بهم ، ليواصلوا معارك التحرير ، ويطردوا الغزاة من آخر معاقلهم في عكا سنة ٦٩٠ /١٢٩١ (٧) .

كان لأحداث الصراع هذه اصداء واسعة في الشعر الشامي في القرنين السادس والسابع الهجريين ، وسأتناول في هذا البحث الحديث عن جانبين من جوانب ذلك الشعر هما :

---

(١) ابو شامة : الروضتين ٢/١ : ٦٢٢ .
(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية : ١٠٧٥ .
(٣) الذهبي : العبر في خبر من غبر ٤ : ٢٥١ .
(٤) ابن شداد : النوادر السلطانية : ٨١ – ٨٢ ، المقريزي : السلوك ١/١ : ٩٦ ، ابن ايبك : كنز الدرر ٧ : ٨٤ – ٩٣ .
(٥) ابن شداد : النوادر السلطانية : ٢٣٤ – ٢٣٥ .
(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ٥ : ٣٣٦ .
(٧) المقريزي : السلوك ٣/١ : ٧٦٢ .

— مواكبة الشعر لاحداث الصراع

— دور الشعر في المواجهة .

اولا : مواكبة الشعر لاحداث الصراع

رصد الشعراء الشاميون احداث الصراع التي احتدمت بين المسلمين والصليبيين ، منذ ان وطئت أقدام الغزاة الديار الإسلامية ، غير أن هذا الرصد لم يكن منتظماً في مرحلة الهزائم ومن ثمّ فإنّ صورة هذه المرحلة لا تبدو واضحة في الشعر الشامي ، فما وصلنا من هذا الشعر كان قليلاً إلى حد بعيد مما يدعو إلى السؤال : هل ضاع هذا الشعر او انه لما يصل الينا ولا سيما اننا ما زلنا نفتقد كثيراً من دواوين تلك الفترة ؟ وهل الشاعر العربي لا تجود قريحته ويتضاءل صوته عند الهزائم ؟ وهل لغياب شخصية القائد البطل الذي يستهوي الأفئدة بجهوده ، في أثناء تلك المرحلة أثر في ذلك ؟

ومن أشهر القصائد التي قيلت في مرحلة الهزائم قصيدة لابن الخياط الدمشقي زعيم الجيوش — ٥١٧ /١١٢٤ مدح فيها الأمير عضب الدولة — ٥٠٢ /١١٠٩ زعيم الجيوش في دمشق ، وحضه على الجهاد ، مطلعها (١) . :

فدَتْكَ الصواهـل قُبّـاً وجُـرداً وشُمُّ القبائل شيباً ومُـرْدا

وقد دقّ الشاعر في قصيدته ناقوس الخطر ، لعله يوقظ النفوس المتخاذلة ، لتقف في وجه الغزاة الذين تفيض نفوسهم حقداً على الإسلام وأهله :

أنـوماً عـلى مثـل هـدّ الصفـاة وهزلا وقد أصبح الأمر جـداً

وكيـف تنـامون عـن أعيـن وتوْتُم فأسهرتموهنّ حـقـدا

وشرّ الضغـائـن مـا أقبلـتْ لديه الضغائنُ بالكفر تحدى

بنـو الشرك لا ينكـرون الفسـاد ولا يتركون منَ الفتك جُهُدا

وحين يصور الشاعر الأجواء النفسية التي خيمت على النامس ، وهم يعانون وطأة الهزائم ، فإنّه يقدم صوراً مؤثرة للرعب الذي دبّ في نفوس الفتيات والأمهات بسبب خوفهن على أعراضهن وأعراض بناتهن :

(١) ابن الخياط : ديوانه : ١٨٢ .

فكم من فتاة بهم أصبحت تدق من الخوف نحراً وخداً
وأمّ عواتق ما أن عرفن حرّاً ولا ذُقْن في الليل بَرداً
تكاد عليهن من خيفة تذوب وتتلف حزناً ووجداً

وقد شهدت مرحلة الهزائم هذه بعض الوثبات الاسلامية ، ففي سنة ٥١٣هـ/١١١٩ انتصر المسلمون بقيادة الامير نجم الدين ايلغازي بن أرتق ٥١٦ / ١١٢٢ على الصليبيين في معركة البلاط ، وقتل من الغزاة خلق كثير (١) . وبعد أن عاد المسلمون من المعركة قال ابن العظيمي (ولد سنة ٤٨٣ /١٠٩٢) قصيدة مجد فيها هذا النصر ، الا أنه لم يصل الينا منها غير بيتين هما (٢) :

قل ما تشاء فقولك المأمول وعليك بعد الخالق التعويل
واستبشر القرآن حين نصرته وبكى لفقد رجاله الإنجيلُ

وفي سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ أوقع سيف الدين شجاع الدولة سوار بين أبتكين (٣) بعساكر الفرنجة ، ودخل حماة بالرؤوس والأسارى(٤) ، ومرة أخرى نسمع صوت ابن العظيمي يتغنى بهذا الظفر في قصيدة ، لم يبق منها إلا أولها : (٥) .

ابت عزمات جدك أن تسامي وجل علو قدرك أن يرامي

وفي السنة نفسها هاجم الصليبيون دمشق ، فتصدى لهم تاج الملوك بوري ، حتى انخذلوا وانهزموا (٦) . وفي هذه المناسبة قال ابن القيسراني ٥٤٨ /١١٥٢ قصيدة ، مطلعها : (٧)

الحقُّ مبتهجٌ ، والسيفُ مبتسمُ ومالُ أعدا مجير الدينِ مُقتَسَمُ

(١) ابن القلانسي : تاريخ دمشق : ٣١٩ — ٣٢١ .
(٢) ابو ذر الحلبي : كنوز الذهب (ميكروفلم) ١ : ١٩ .
(٣) انظر اخباره متفرقة في تاريخ ابن القلانسي : ٣٧٤ ، ٣٨٢ ، ٤٥٠ .
(٤) العظيمي : تاريخه : ٤٠١ وقد نشرتحت عنوان :
(LA CHRONIQEUE ABREGEE DAL—AZIMI)
(٥) المصدر السابق : ٤٠١ .
(٦) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ٣٥٦ — ٣٦٠ .
(٧) د. عادل جابر : شعر ابن القيسراني : ١٥٠ .

ومنذ أن بزغ نجم عماد الدين زنكي بدأ المسلمون مرحلة جديدة من الصراع ، هي مرحلة ردة الفعل . وقد بدأ الشعراء يرصدون أحداث الصراع رصدا شبه منتظم ، حيث أصبح بالإمكان استقراء الأحداث من الشعر بشكل يوازي استقراءها من المصادر التاريخية ، فقد تجمع حول عماد الدين طائفة من الشعراء الشاميين الذين أخذوا يتبارون في تسجيل انتصاراته وكأنهم وجدوا فيه البطل الرمز الذي يدافع عن الدين ، ويحمي الأمة .

ففي سنة ٥٣٢ /١١٣٧ هاجم ملك الروم والصليبيون شيزر ، فاستنجد صاحبها بعماد الدين فأنجده ، فرحل الروم عنها بعد ان أقاموا عليها أربعة وعشرين يوماً ، فتبعهم عماد الدين ، وظفر بطائفة منهم (١) . وقد وصف ابن قسيم الحموري (ترفي بعد ٥٤٠ هـ) الحال في قصيدة ، أولها : (٢)

بعز ملك أيها الملك العظيم تذلّ لكَ الصعابُ وتستقيمُ

وفي سنة ٥٣٤ / ١١٣٩ حصر عماد الدين «حصن بارين» بين حلب وحماة ، فراسل الصليبيون في طلب الأمان ، فأمّنهم ، ودخل المسلمون الحصن (٣) وقد سجل ابن القيسراني ٥٤٨ /١١٥٢ هذا الفتح بقصيدة بدأها بقوله(٤) :

حذارِ منّا وأنّى ينفعُ الحذَرُ وهي الصوارمُ لا تبقي ولا تذَرُ

ولابن منير الطرابلسي قصيدة في الموقعة ذاتها ، مطلعها :(٥)

فدتك الملوك وأيّامُها ودامَ لنقضك إبرامُها

وفي سنة ٥٣٩ / ١١٤٤ فتح عماد الدين الرها ، وكان فتحا عظيماً وقد هنأ ابن القيسراني عماد الدين بهذا الفتح في قصيدة أولها : (٦)

(١) اسامة بن منقذ : الاعتبار : ١٤٥ .
(٢) ابن عساكر : تاريخ دمشق (ميكروفلم) ١٦ : ٢٣٣ .
(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ٢ : ٢٦١ ، ٩٠ .
(٤) د. عادل جابر : شعر ابن القيسراني : ٢٠٦ .
(٥) ابن منير : ديوانه : ١٩٤ .
(٦) د. عادل جابر : شعر ابن القيسراني : ١٤٥ .

هو السيف لا يغنيك إلا جلاده وهل طوّق الأملاك إلا انجادُهُ

وشارك ابن منير الطرابلسي في تسجيل هذا الانتصار ، فتحدث عنه في مواضع متعددة من شعره ، كما خصص له قصيدة أولها : (١) .

صفاتُ مَجدك لفظ جلّ معناهُ فلا استردّ الذي أعطاكه اللهُ

وتتوالى الانتصارات العسكرية في عهد نور الدين ، وبسبب هذه الانتصارات على الرغم من بعض الانتكاسات التي تخللتها ، وكأنها مدد اسلامي حثيث يستنقذ البلاد من المحتلين وكان هذا المدّ يغري الشعراء بالقول ومن ثم كثر الشعر في عهد نور الدين كثرة فائقة ، وقد استهل نور الدين انتصاراته باستعادة الرها سنة ٥٤١ /١١٤٦ ، وكان الصليبيون قد انتزعوا فرصة موت عماد الدين وانتزعوها مرة أخرى وفي هذه المناسبة قال ابن القيسراني قصيدة بدأها بقوله : (٢) .

اما آن أن يُهدى الباطلُ وإنْ يُنجزَ عِدةَ الماطلُ ؟

وقد خاض نور الدين في سنتي ٥٤٢ /١١٤٧ و ٥٤٣ /١١٤٨ عدة معارك مع الغزاة استعاد بها عددا من المواقع الهامة (٣). وقد رصد ابن منير هذه المعارك وتغنى بها في مواضع متفرقة من شعره في إطار تمجيده لبطولات نور الدين ، ومن ذلك قصيدة ، مطلعها (٤) :

غدا الدين باسمك سامي العلم أمين العماد مكين القدمْ

وأخرى اولها (٥) :

لقد اوطأت دينَ الله عزّا اديمُ الشعريين له رغامُ

وفي سنة ٥٤٣ /١١٤٨ ثأر نور الدين من الأعداء في أثر هزيمة لحقت بجيشه(٦) . وفي هذه الموقعة قال ابن القيسراني قصيدة أولها(٧) :

---

(١) ابن منير : ديوانه : ١٩٥ .
(٢) د. عادل جابر : شعر ابن القيسراني : ٣٠٩ .
(٣) انظر : ابا شامة : الروضتين ١/١ : ١٣٢ ، ١٤٣ .
(٤) ابن منير : ديوانه : ٢٥٨ .
(٥) ابن منير : ديوانه : ٢٥٨ .
(٦) ابن الأثير : الكامل ١١ : ٨٩ .
(٧) د. عادل جابر : شعر ابن القيسراني : ١٤٩ .

يا ليتَ أنَّ الصدَّ مصدودٌ أوْ لا فليتَ النوم مردودُ

وفي سنة ٥٤٤ /١١٤٩ نهض نور الدين بعسكره إلى الافرنج في الموضع المعروف بـ «إنّب» من نواحي حلب ، فقتلوهم وغنموهم ، ووُجدَ قائدهم صريعا فيمن قتل (١) ، وأنشد ابن القيسراني قصيدة هنأ فيها نور الدين بهذا الفتح ، استهلها بقوله (٢) :

هذى العزائم لاما تدّعى القضبُ وذى المكارم لاما قالت الكتبُ

ولابن القيسراني قصيدة ثانية في هذا الفتح ، مطلعها (٣) : —

تفي بضمانها البيض الحداد وتقضي دَيْنَها السمرُ الصِّعادُ

وكان ابن منير الطرابلسي أكثر احتفالاً بهذا الظفر فقد ذكره في غير مما قصيدة ، منها قصيدة أنشدها نور الدين في أرض المعركة ، أولها (٤) :

أقوى الضلال وأقفرت عرصاتُهُ وعلا الهدى وتبلجت قسماتُهُ

وتستمر الحركة الجهادية صاعدة في عصر نور الدين ، ويستمر الشعراء في التغني بالانتصارات التي يحرزها المسلمون ، وكانت هذه الانتصارات متلاحقة لذا لم تعد القصيدة الجهادية في هذه المرحلة مخصصة لمعركة واحدة ، وإنما غدت سجلاً حافلاً للمعارك المظفرة التي خاضها المسلمون ، فإذا ما تغنّى الشاعر بنصر تداعى إلى ذاكرته سلسلة من الانتصارا الأخرى كما في قول ابن منير الطرابلسي (٥) :

ويوم « بَسُوطاً » بَسَطْتَ الحمام على الهضْبِ من رُكْنها فانْهَدم
وَ «بُصْرى» و«صَرْخدَ» لو لمْ تثرْ داركاً لكانا رَديفَيْ إرَمْ
ويوم «بَسَرْفودَ جَرَّعْتَهُم أُجاجاً أغصّهم واصْطَلَم
وفَوقَ « العُرَيمة » غشّاهم عرامُ جيوشك سَيْلَ العَرِمْ

(١) ابو شامة : الروضتين ١٥٢/١/١ .
(٢) د. عادل جابر : شعر ابن القيسراني : ٦٥ .
(٣) نفسه : ١٥٣ .
(٤) ابن منير : ديوانه : ٢٠٨ .
(٥) ابن منير : ديوانه : ٢٥٩ .

وقد تخلل هذا المد بعض الأنتكاسات ، وكان من أخطرها انهزام المسلمين في موقعة «البقيعة» قرب حمص سنة ٥٥٨ / ١١٦٢(١) . وقد اعتذر ابن الدهان الموصلي ٥٨٢ /١١٨٦ عن هذه الكسرة في قصيدة مطلعها (٢) :

ظبا المواضي وأطراف القنا الذُّبُلِ ضوامنٌ لك ما حازوه من نفلِ

ويواصل صلاح الدين السّير على درب الجهاد ، ليبدأ المسلمون سنة ٥٨٣ /١١٨٧ أعظم هذه الانتصارات ، كان أولها استرداد طبرية . وقد قال ابن الساعاتي — ٦٠٤ /١٢٠٧ في هذا النصر قصيدة ، مطلعها (٣) :

جَلَتْ عزماتك الفَتْحَ المبينا فقد قرّتْ عيون المسلمينا

وبعد هذه الموقعة احتمى الصليبيون بـ «تل حطين» ولجأوا إليه ، فلاحقهم المسلمون ، والتقوهم هناك ، وهزموهم (٤). ثم تطلع صلاح الدين إلى السواحل الشامية ، ففتح عكا ، وصيدا ، وبيروت ، وتبنين ، ويافا ، وارسوف ، وغزة ، وعسقلان ، وغيرها(٥). وقد واكب الشعراء هذه الانتصارات وتغنوا بها ، بيد أنهم لم يفردوا لكل فتحٍ قصيدةً ، لذا جاءت قصائدهم معرضاً لهذه الحروب المظفرة ، من ذلك الأبيات التالية التي قالها العماد الأصفهاني (٦) :

وقد طاب رياناً على طبريّة فيا طيبَها مغنىً ، ويا حُسْنُها مرسى
وعكا ، وما عكا ، فقد كان فتحُها لإجلائهم عن مدن ساحلهم كنسا
وصيدا وبيروت وتبنين (٧) كلها بسيفك ألفى أنفه الرغم والتعسا
ويافا وأرسوفٌ وتبنى وغزة تخذت بها بين الطلى والظبا عرسا
وفي عسقلان الكفر ذل بملككُم فمنظرهُ ، بل أمره أربد وأرجَسا

(١) ابو شامة : الروضتين ١/١ : ٢٧٢ .
(٢) ابن الدهان الموصلي : ديوانه : ٧٠ .
(٣) ابن الساعاتي : ديوانه ٢ : ٤٠٦ .
(٤) العماد الاصفهاني : الفتح القسي : ٧٧ .
(٥) ابن شداد : النوادر السلطانية : ٧٩ — ٨١ .
(٦) العماد الاصفهاني : ديوانه : ٢٣٣ .
(٧) لعل المقصود «يبنى» وهي قرب الرملة ، لان سياق الاحداث يقتضي ذلك ، اما «تبنى» فهي من نواحي دمشق ، ولم تكن سنة ٥٨٣ في دائرة الاحتلال .
انظر : ياقوت : معجم البلدان : «تبنى» و «يبنى» .

وتبلغ الانتصارات الصلاحية ذروتها عند فتح بيت المقدس ، ويبلغ شعر الجهاد ذروته كذلك ، حيث تسابق الشعراء ، من بلاد الشام ومن غيرها ، لتمجيد هذا الفتح ، والتغني به ، وتصوير اصدائه في نفوس الامة (١) فقد استهلّ الرشيد النابلسي إحدى قدسيّاته بأبيات تعظّم النّصر ، وتعبّر عن فرحة الناس به ، فتصوره أملاً كبيراً طال ترقب الأمّة له ، حتى إنّ بعضهم قطّع على نفسه النّذورُ إذا ماتحقّق (٢) :

هذا الذي كانت الآمال تنتظرُ فليوفِ للهِ أقوامٌ بما نذروا
بمثْل ذا الفتحِ لاواللهِ ماحكيَتْ في سالفِ الدّهرِ أخبارٌ ولا سير

وتفيضُ نفسُ ابن الساعاتي ٦٠٤ /١٢٠٧ بمشاعر الإكبار والإجلال ، وأحاسيس النشوة والفرح حين نقل للأمة البشرى بهذا الفتح : (٣)

أعيدا وقد عاينتُمُ الآيةَ العظمى لأيةِ حالٍ تذخرُ النثرَ والنّظما
وقد ساغَ فتحُ القدسِ في كلِ منطق وشاعَ الى أسمعَ الأسلِ الصما

وحين نقل العمادُ الإصفهاني نبأ فتح القدس للخلافة العباسية ، نوّهَ بهذا الإنجاز العظيم الذي حقّقه صلاح الدين وعجز عنه الآخرون فدفع به عادية الكفر عن الإسلام والمسلمين : (٤)

أبشرْ بفتحٍ أميرَ المؤمنين أتى وصيتُه في جميع الأرض جوّابُ
ما كانَ يخطرُ في بالٍ تصوّرُهُ واستُصعبَ الفتحُ امّا أغلقَ البابُ
وخام عنه الملوكُ الأقدمون وقد مضَتْ على الناس من بلواه أحقابُ

غير أن الصليبيين أعادوا الكرّة ثانية ، وأنفذوا الحملة الصليبية الثالثة صوب القدس سنة ٥٨٧ /١١٩١ (٥) وقد عرّضَ الرشيد النابلسي بالغزاة في قصيدة لم يبق منها الاثمانية أبيات تبدأ بقوله : (٦)

(١) انظر : د. عبدالجليل عبدالمهدي : بيت المقدس في ادب الحروب الصليبية : ٧٤ وما بعدها.
(٢) ابو شامة : الروضتين ٢ : ١١٨ .
(٣) ابو شامة : الروضتين ٢ : ١٠٦ .
(٤) العماد الاصفهاني : ديوانه : ٧٥ .
(٥) العماد الاصفهاني : الفتح القسي : ٥٢٨ .
(٦) ابو شامة : الروضتين ٢ : ١٩٤ .

ويحَ الفرنجةِ بلْ وَيل لهم أوَمَـا فيهم لبيبٌ على العلاتِ يعتبرُ ؟(١)

وقد تصدعت صفوف الأمة بعد وفاة صلاح الدين وتصارَعَ أبناؤه على السلطة فوجد الصليبيون في ذلك فرصة سانحة لاكتساح بعض المناطق وتدميرها ففي سنة ٦١٤ /١٢١٧ هاجم الصليبيون منطقة حوران ، وتمادوا في زحفهم إلى الجهات الجنوبية من بلاد الشام ، مدمرّين كل مافي طريقهم وقد صور ابن عقيل الزرعي ٦٢٢ /١٢٢٩ الخراب الذي أصاب هذه البلاد ، وكيف أنأهلها هاجروا منها خوفاً من الغزاة تاركين ديارهم خاوية على عروشها(٢)

جارَ الزمانُ على سكّانِ حورانا لاكانَ دهرٌ قضى بالجَوْرِ لاكانا
أخنى وخانَ وقد كان الوفيَّ لهم لاغرو للدهر إن أخنى وإن خانـا
صاحَ الجلاءُ بهم صوتاً فما لبثوا أن جاوَبوه جماعات ووحدانـا
فأصبحتْ دِمناً تلك الرّبوع لهـم وبدّلتْ بعدهُم يوماً وغربانـا

* *

كم بين بُصرى إلى الرَّمثا إلى طفس من الخراب الى ماحول نجرانا
ولست أنسى حبالاً والسّراة وما أصاب مابَ إلى ماحولَ عمّانـا
أسراً وقتلا ونهباً حين أذكـره يهيجُ تذكارُه للقلبِ أحزانـا

وفي سنة ٦١٦ /١٢١٩ استولى الفرنج على دمياط (٣) ، فقال ابن عقيل الزرعي قصيدة حث فيها الملك الأشرف موسى على إرسال المدد لأخيه لإنقاذ المدينة من أيدي الغزاة ، ومما قاله فيها : (٤)

ناداك عيسى فاستجب لدعائـه أسعفْه أنت اليوم أفضلُ مسعفِ
لوَ أنك الدّاعية لبّى مُسرعـاً بالمشرفية والرّماحِ الرعّـفِ
أصرِخ أخاك ولا تُضعْ ماقالـه بتعطفٍ في شعره وتلطّـفِ
فهلمَّ ياموسى لعيسى ناصراً ومحمد ، وانهض بغير توقف

(١) في الأصل : امهم ، لا يستقيم الوزن ، ولعل صوابه ما اثبتناه .
(٢) ابن عقيل الزرعي : المختار من ديوانه (ميكروفلم) ٣٩ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ١٢ : ٣٢٦ .
(٤) ابن عقيل الزرعي : المختار من ديوانه (ميكروفلم) ٢٤ .

وكان تسليم الملك الكامل القدس للصليبيين سنة ٦٢٦ /١٢٢٩ من أكثر أحداث الحروب الصليبية خطورة ، حيث وُقِّعَتْ بين الكامل والغزاة معاهدة صلح مدتها عشر سنوات ، أخذ الصليبيون بمقتضاها القدس وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا وقد استعظم المسلمون ذلك وأكبروه ، ووجدوا له من الوهن والتألم مالم يمكن وصفه (١) وعُقِدَ في دمشق مجلس وعظ رُثِيَتْ فيه المدينة بقصائد شجيّة ، من ذلك قصيدة مشهورة لابن المجاور ٦٤٣ /١٢٤٥ ، مما قاله فيها : (٢)

أَعَيْنَيَّ لاتَرْقَيْ من العَبَرات صلي في البُكا الأصالَ بالبكرات
لعلَّ سيولَ الدمعِ يطفيءُ فيضُها توقُّدَ مافي القلب من جَمَرات
ويا قلبُ : أَسْعِرْ نارَ وجدكَ كلما خَبَتْ بادكارٍ يبعثُ الحَسَرات

وندب أبو محمد عبد الرزاق الرسعني (٣) المدينة في قصيدة استهلّها ... بدعوة المسلمين إلى اعلان الحداد وإقامة المآتم على القدس الشريف مصوّراً هول المصيبة ، حتى إن الناس لايكادون يُصدّقون ماحدث (٤) :

تعالوا نقيمُ الحُزْنَ في مجمع الأنس ونصبغُ أثوابَ المصيبةِ بالنفسِ
ونعملُ للإسلامِ أعظمَ مأتمٍ كما أنَّ عُبادَ الطواغيتِ في عرسِ
مناماً أرى أم يقظة ماسمعتُه أحقاً عبادَ الله أم خانني حسي؟

وفي سنة ٦٣٧ /١٢٤٠ استرد الملكُ الناصر القدس ثانية من الفرنجة ، غير أنّ أصداء هذا الفتح تكاد تكون معدومة في الشعر الشامي .

وقد واكب الشعر معارك التحرير التي خاضها المماليكُ ضد الصليبيين ، وعبر الشعراءُ عن فرحتهم بالنتائج المظفرة لهذه المعارك ؛ ففي سنة ٦٨٢ / ١٢٨٣ استرد الملك المنصور حصن المرقب ، فهنأه الشعراء بذلك ، منهم شهاب

(١) ابن الأثير : الكامل ١٢ : ٤٨٣ .
(٢) د. عبدالجليل عبدالمهدي : بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية : ٢٤٠ .
(٣) ترجمته في : ابن الشعار : عقود الجمان (ميكروفلم) ٤ : ١٣٦ — ١٣٧ .
(٤) المصدر السابق ٤ : ١٣٦ وانظر : بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية : ٢٤٣ .

الدين محمود في قصيدة أولها : (١)

الله أكبر هذا النصر والظفر هذا هو الفتح لا ما تزعم السير

وفي سنة ٦٩٠ /١٢٩١ فتح الملك الأشرف عكا (٢) موجهاً بذلك الضربة النهائية للوجود الصليبي في بلاد الشام . وقد مجّد شهاب الدين محمود هذا الظفر بقصيدة أولها(٣) :

الحمدُ لله زالت دولةُ الصلب وعزّ بالترك دين المصطفى العربي

ويلاحظ من العرض السابق ان الشعراء الشاميين قد رصدوا أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين ، وأن هذا الرصد غدا شبه منتظم بعد ان تزعم الزنكيون ردة الفعل الإسلامية ، وأنه كلما تصاعدت الحركة الجهادية كثر الشعر .

والسمة العامة لنهج الشعراء في رصد الأحداث أنهم كانوا يأتون بالمَعْلَم الكبير للواقعة ، ويرسمون الخطوط العامة لما حدث بالفعل ، وقد يقدمون بعض التفصيلات ، مما يكسب هذا الشعر قيمة «تأريخية» ولكنها تاريخية ملونة ، إذ جاءت ممزوجة بمشاعرهم ، ومصورة للانفعالات التي أثارتها الأحداث في نفوسهم ، وموجهة لتحقيق أهداف الجماعة الإسلامية . ومن الأمثلة على ذلك قصيدة ابن منير الطرابلسي في معركة إنّب ، فقد استهل الشاعر هذه القصيدة بأبيات تعبر عن مشاعر الفرح والابتهاج بهذا النصر الذي أعاد للاسلام عصوره الأولى (٤) :

أقوى الضلال وأقفرت عرصاتُه وعلا الهدى وتبلّجتْ قسماتُه

وانتاش دين محمد محمودُه من بعد ما عُلّتْ دماً عَبَراتُه

ردّت على الإسلام عَصْرَ شبابه وثَبَاتُه من دونه وَثَبَاتُه

(١) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ٣٢٠/٧ .
(٢) المقريزي : السلوك ٣/١ : ٧٦٢ .
(٣) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ١٥١/١ .
(٤) ابن منير : ديوانه : ٢٠٨ .

ويستغرق تمجيد البطل والإشادة به أبياتاً كثيرة من القصيدة ، حيث خلع عليه الشاعر مجموعة من الفضائل الخلقية والحربية . أما الحدث الرئيسي في هذه المعركة ، وهو مقتل البرنس صاحب انطاكية ، ورفع رأسه على سنان الرمح ، فقد تحدث الشاعر عنه في الأبيات التالية :

وسَقَى البرْنس وقد تَرنَّسَ ذِلّةً بالروج مستقرُ ما جَنَتْ غدراته(١)
ومضى يؤنب تحتَ «إنّب» همـــةً أمستْ زوافرَ غيّها زفراتُـــه
أسد تبوأ (بالغريف)(٢) فَجَأتَه فتبوأتْ طرف السنان شواتُـــه
دونَ النجوم مغمّضاً ، ولطالمـــا أغضَتْ وقد كرّتْ لها لحظاتُـــه
فجلوتَه تبكي الأصادقُ تحتَـــه بدمٍ إذا ضحكتْ له شمّاتُـــه

ولم تفت الشاعر الذي عرف خطر هذا القائد الفرنجي ان يقارن بين حاله قبل هذه المعركة وحاله بعدها :

ما انتادَ قبلك أنفُـــه بخزامـــه كلا ولا همّت لها همراتُـــه
طيان (خلف) «السرح» طال زئيرُه نطقتْ سطاك له فطالَ صُماتُـــه

وتوحي مشاعر الظفر إلى ابن منير بأن يقول :

اليوم مَلّكَكَ الثراغُ قلاعَـــه متسنّماً ما استشرفتْ شرفاتُـــه
وغداً تحل لك الحلائل اسهم متوزعات بينهن بناته

ويتضح مما سبق ان ابن منير قد حاول ان يسجل الواقعة في شعره ، وأنه أتى بالحدث الرئيسي فيها ، وأطال الوقوف عنده ، وأشار إلى نتائجه . إلا أنه صور أكثر من ذلك . فقد صور ابتهاج الأمة بهذا الظفر ، وإعجابه ببطولة نور الدين ، وبغضه الشديد للغزاة ممثلين في شخص هذا القائد الصريع .

ثانياً : دور الشعر في المواجهة

تعدّى الشعراءُ الشاميون زمن الحروب الصليبية مهمة النقل والسرد لأحداث

(١) الروج : قرية غربي حلب ، المستقر : ا ر .
(٢) ورد في طبعة الديوان «كالغريف» ، ولا وجه له في السياق ، وربما كان الصواب ما هو مثبت ، وهو بمعنى الشجر الملتف .

الصراع ، إلى اتخاذ مواقف تساند الأمة في المواجهة العسكرية ، ومن هذه المواقف :

١ — وَضْعُ الصّراع في إطاره الإسلاميّ الشّامل باعتباره صراعاً بين أمتين مختلفتين في العقيدة ومن هنا هذه المشاعر الإسلامية الدافقة التي غمرت شعر الجهاد ، واتخذت أنماطاً شتى من أنماط الصور والتعابير . فقد عرّضَ ابنُ القيسراني بمعتقدات الصليبيين عندما تحدّث عن انتصار المسلمين في الرّها (١) :

لقد كان في فتح الرّهاءِ دلالـةٌ ... على غيرما عند العلوج اعتقادُهُ
يرجونَ ميلادَ ابنِ مريمَ نصرةً ... ولم يغنِ عند القوْم عنه ولاده

وإثْرَ الانتصارات المتتالية التي أحرزها نورالدين ، مَثّلَ ابنُ منير الإسلامَ شخصاً يكادُ يقبل الأرضَ التي يسير عليها هذا البطل المجاهد(٢) فلو قَدْ مُثّلَ الإسلامُ شخصـــاً ... لرَشّفَ ماوَطِئْتَ من السّلامِ

والمعركة في شعر أسامة بن منقذ معركة بين حزبين : «حزب الله» و«حزب الكفر والطُغيان» : (٣)

بلكَ قَدْ أعزَّ اللهُ حزْب جنـــودِهِ ... وأذلَّ حزْبَ الكفر والطُغيانِ

وصوّر عبدُالمنعم الجلياني الحماسةَ الصليبية التي اضطرمت في نفوس الفرنجة إثر استعادة المسلمين لمدينة القدس والبواعث الدينيّة التي كانت تحفزهم على التطلّع إلى احتلال هذه المدينة مرّة أخرى : (٤)

لمّا سَبَى القدسَ قالوا : كيف نتركها ... والربّ في حفرة منها تمثلُهُ ؟
فكم مليكٍ لهمْ شق البحارَ سرىً ... لينصروا القبر والأقدارُ تخذُلـهُ

ويستخدم شهاب الدين محمود طائفة من الصور والتعابير ذات الدلالات الدينية ، حين مجّد فتح المسلمين مدينة عكا سنة ٦٩٠ ، معتبراً هذا النصر

(١) د. عادل جابر : شعر ابن القيسراني : ١٤٦ .
(٢) ابن منير : ديوانه : ٢٦٥ .
(٣) اسامة بن منقذ : ديوانه : والسلام : جمع سلمة ، وهو الحجر .
(٤) ابو شامة : الروضتين ٢ : ١٥١ .

إعزازاً للدين الحنيف ، واصفاً دولة الأعداء بأنها « دولة الصلب » مبتهجاً بالتأييد الإلهي لجيش المسلمين ؛ جيش النصر ، مصوّراً فرحَ النبي — عليه السلام بهذا الظفر ،وابتهاج الديار الحجازية بتحرير عكا، وذلك إذ يقول(١)

الحمدُ لله زالت دولةُ الصلبِ ... وعزَّ بالتركِ دينُ المصطفى العربي
أغضبتَ عبّادَ عيسى إذ أبَدْتهُمُ ... لله أيّ رضىً في ذلك الغَضَبِ
وأطلعَ اللهُ جيشَ النّصر فابتدرتْ ... طلائعُ النّصرِ بين السمرِ والقضُبِ
وأشرفَ المصطفى الهادي البشيرعلى ... ماأسلفَ الأشرفُ السلطانُ من قربِ
فقرّ عيناً بهذا الفتحِ وآبتهجَتْ ... بفتحهِ الكعبةُ الغراءُ في الحجبِ

ومثلُ هذا الالتفات الى الماضي ، واستيحاء بعض المواقف التي تتبوّأ مكانة سامية في الحضارة الإسلامية ، ومقارنتها ببعض الوقائع والشخصيات الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ، ممّا نجده كثيراً في شعر الجهاد ، وكأنما أراد الشعراء «بإقامة الروابط بين الحاضر والماضي الإسلاميّ المجيد الغنيّ بشخصيات فذّه ، استثارة إيحاءآت فكريّة وعاطفيّة في نفوس المسلمين جميعاً ، والمقاتلين منهم بصورة خاصة ، بسبب ماتتركه هذه الإيحاءآت من أثر فاعل في النفوس» (٢) .

وقد ردَّدَ الشعراءُ ذكر «الصليب» في قصائدهم كثيراً ، ولا غروفي ذلك فهو شعار الحرب التي شنّها الغزاة على ديار الإسلام ، حيث كانوا يحملون هذه الصلبان معهم في المعارك استثارةً وتحريضاً . فقد تحدّث ابن أبي الحكم الاندلسي عمّا كانت تضمّه معسكرات الفرنجة حول دمشق سنة ٥٤٣ /١١٤٨ من خنازير وقرابين وصلبان ، حاولوا رفعها على المساجد الاسلامية (٣) :

وبين خيامهم ضموا الخنازر والقرابينا ... ورايات وصلباناً على مسجد خاتونا

ولفرط تشبّث هؤلاء الغزاة بـ«الصليب» ، فقد نعتهم الشعراء بـ«عبّاد

(١) ابن شاكر : فوات الوفيات ١ : ١٥١ .
(٢) د. محمود ابراهيم : صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني : ٨٦ .
(٣) ابو شامة : الروضتين ١/ ٥٤ .

الصليب ، و«جنود الصليب» ،وغدا تكسير «الصليب» رمزاً لتفوق المسلمين كما غدا الحديث عن تحرير البلدان الإسلامية مرتبط بتطهيرها من «الصلبان»(١).

وضمن إطار الحرب الجهادية ، ذكر الشعراء كثيراً مما يرتبط بالحياة الدينية عند حملة الصليب ، مثل «الكنائس» ، و«الرهبان» ، و«النواقيس» ، و«البطاركة» ، و«القساوسة» ؛ وفي مقابل ذكر هذه الألفاظ المرتبطة بمعتقدات الصليبيين ، ذكر الشعراء كلمات اسلامية ذات دلالة خاصة ، للتعبير عن الصراع العقائدي بين الفريقين ، كما في الأبيات التالية التي صور فيها الرشيد النابلسي مدينة القدس بعد تحريرها (٢) :

يا بهجة القدس إذ أضحى به علم الـ ... إسلام من بعد طيّ وهو منتشر
يا نور مسجده الاقصى وقد رُفعتْ ... بعد الصليب به الآياتُ والسُورُ
شتّان ما بين ناقوس يُدانُ به ... وبين ذي منطق يصغي له الحجَرُ
الله أكبرُ صوتٌ تتشعرّ لـ ... ـه شُمُّ الذُرى وتكادُ الأرضُ تنفطر

وإذ يضع الشعراء الصراع في إطاره الإسلامي الشامل ، فانهم لم يكونوا أمناء على التاريخ فحسب ، وإنما كانوا يحققون أهدافاً ذات صبغة عملية تتمثل في استقطاب الأمة الإسلامية كافة على درب الجهاد . وتبدو أهمية ذلك في مجتمع مثل المجتمع الشامي الذي تعددت الأجناس التي يتكوّن منها.

٢ — الدعوة إلى الجهاد : من المواقف التي اتخذها الشعراء الحث والإثارة، وبث دعوة الجهاد في الأمة ، والدعوة إلى الوقوف في وجه العدوان ، وتحرير البلاد الإسلامية . وقد بدأت دعوة الشعراء إلى مواجهة العدوان منذ وقت مبكر ، واتخذت هذه الدعوة في مرحلة الهزائم طابعاً بكائياً يقوم على استثارة المشاعر من خلال تصوير ما حل بالمسلمين من ويلات

(١) انظر : ديوان ابن منير : ٢٠ ، ديوان العماد : ٢٣٢ ، الروضتين ٢ : ١٢ ، الخريدة قسم الشام ١ : ٤٠٨ .
(٢) ابو شامة : الروضتين ٢ : ١١٨ .

على أيدي الغزاة . من ذلك الأبيات التالية التي قالها شاعر لم تذكر المصادر اسمه (١) :

أحلَّ الكفر بالإسلام ضَيْماً ... يطول عليه للدين النحيب
فحقٌ ضائع ، وحمى مباح ... وسيف قاطع ، ودمٌ صبيب
وكم من مسلمٍ أمسى سليباً ... ومسلمة لها حرم سليب
أمور لو تأمّلهن طفل ... لطفّل في عوارضه المشيب
فقُل لذوي البصائر حيث كانوا: ... أجيبوا الله ، ويحكُمُ أجيبوا

غير ان هذه النزعة البكائية سرعان ما تلاشت بعد ان تزعم عماد الدين زنكي حركة الجهاد ، وحلت محلها نغمة أخرى تتسم بالقوة ، وتعبر عن الشعور بالثقة . فقد عبر ابن القيسراني لعماد الدين عن آماله باستنقاذ الثغور الشامية ، ورسم صورة مشرقة لهذه الثغور وقد أزيح عنها الاحتلال ، وذلك إذ يقول (٢) :

لا فارقتْ ظلَّ محيي العدل لامعةٌ ... كالصبح تطوي من الأعداء ما نشروا
ولا انثنى النصرُ عن أنصار دولته ... بحيث كان ، وإن كانوا به نصروا
حتى تعود ثغور الشام ضاحكةً ... كأنما حلَّ في أكنافها عُمَرُ

ويتطلع ابن منير الطرابلسي إلى تحرير المسجد الأقصى بعد ان رأى العزيمة المصممة لعماد الدين (٣) :

وغداً يُلقَى على القدس لها ... كلكل يدرسها درس الدرين (٤)
همةٌ تمسي وتضحى عزمة ... ليس حصن إن تحتُه بحصين

وتلهج ألسنة الشعراء بالاستثارة والتحريض في عهد نور الدين ، ومن هؤلاء الشعراء ابن القيسراني الذي لا تكاد تخلو قصيدة من قصائده الجهادية من الدعوة إلى تحرير القدس والسواحل الشامية . فقد صور تصويراً موحياً

(١) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ٥ : ١٥١ — ١٥٢ .
(٢) د. عادل جابر : شعر بن القيسراني : ٢٠٧ .
(٣) ابن منير : ديوانه : ٢٠٠ .
(٤) الدرين : حطام المرعى القديم اليبس .

ترقب القدس ليوم الفتح ، مستنهضاً بذلك همة نور الدين لاستنقاذها ، واستنقاذ بلاد الساحل ، وذلك إذ يقول (١) :

فانهض إلى المسجد الأقصى بذى لجب يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب
وأئذن لموجك في تطهير ساحلـــه فإنما أنت بحر لجـــه لجـــب

وينظر ابن القيسراني ، بعد معركة إنب إلى المستقبل من خلال ثقته بعزيمة سيده نور الدين بتفاؤل وأمل كبيرين ، فيمثل له دخوله المسجد الأقصى مجاهداً ، فيحرره ، ثم يتوجه إلى استرداد السواحل الشامية ، وذلك إذ يقول (٢) :

كأني بهذا العزم لا فُلَّ حَدُّهُ وأقصاه بالأقصى وقد قُضي الأمرُ
وقد أصبح البيتُ المقدس طاهـــراً ولبس سوى جارى الدماءِ له طهر
وقد أدَّت البيض الحداد فروضهـا فلا عهدة في عنق سيف ولا نَذْرُ
وصلّتْ بمعراج النبيِّ صـــوارم مساجدها شفع وساجدها وتـــرُ
وإن يَتَيَمَّمْ ساحل البحر مالكـــاً فلا عجب ان يملك الساحلَ البحرُ

وبعد ان انتظم عقد ملك مصر والشام نور الدين ، تعالت صيحات الدعوة إلى الجهاد ، وتحرير الأرض ، وإن لم يعد ثمة عذر في ترك الأرض تحت سيطرة الغزاة . من ذلك قول الحافظ ابن عساكر مخاطباً نور الدين (٣):

ولست تُعذَر في ترك الجهـاد وقـد أصبحت تملك من مصر إلى حلب
وصاحبُ الموصل الفيحـاء مُمتَثِـل لما تُريد فبادر فجأة النـــوب
فالجَدُّ والجِدُّ مقرونان في قـرَن والحزم في العزم والإدراك في الطلب
وطهر المسجد الأقصى وحوْزتَهُ من النّجاسات والإشراك والصلب

ويرى العماد الاصفهاني ٥٩٧ / ١٢٠١ أن الفرصة ، بعد توحيد مصر والشام قد اصبحت سانحة لحطم جموع حملة الصليب ، واستنقاذ القدس منهم (٤):

(١) د. عادل جابر : شعر ابن القيسراني : ١٩٤ .
(٢) المرجع السابق : ١٤٤ .
(٣) العماد الاصفهاني : خريدة القصر – قسم الشام ١ : ٢٧٧ .
(٤) العماد الاصفهاني : ديوانه : ٢٨٣ .

اغزُ الفرنج ، فهذا وقتُ غزوهم واحطم جموعهم بالذابل الحطمِ
وطهر القدس من رجس الصليب وثب على البغاث وثوب الأجدل القطم
فملك مصر وملك الشام قد نُظما في عقد عز على الاسلام مُنتظم

ويواصل صلاح الدين السير على درب الجهاد ، ويكثر الحاح الشعراء عليه ، وتحريضهم إياه على القتال وتطهير المسجد الأقصى المبارك . ويضرب العماد الاصفهاني بسهم وافر في ذلك ، إذ إنه لم يدع مناسبة تمر دون ان يستحث فيها صلاح الدين على تحرير الأرض المحتلة . من ذلك الأبيات التالية التي يحرضه فيها على تقتيل الصليبيين ، والفتك بهم ، وتطهير القدس من اوضارهم ، وتخليص البلاد الإسلامية منهم (١) :

فَسر وافتح القدس واسفك به دماء متى تجرها ينظف
وأهد إلى الأستار البتار وهدَّ السقوف على الأسقف (٢)
وخلص من الكفر تلك البلاد يُخلصك اللهُ في الموقف

ولم يقتصر العماد في الحث والتحريض على القصيد ، بل الف كذلك نورالدين «رباعيات» في معنى الجهاد . ولعل هذه الرباعيات كانت تعبر عن روح الجماعة الإسلامية زمن الحروب الصليبية ، وربما كان الجند ينشدونها وهم يقاتلون لاستحثاث انفسهم على الحركة والنشاط ، ومن اجل استثارة الحمية والحماسة في قلوبهم . من ذلك قوله (٣) :

لا راحة لي في العيش سوى أن أغزو سيفي طرباً إلى الطلى يهتز
في ذل ذوي الكفر يكون العز والقُدرة في غير جهاد عجزُ

واستثارة لمشاعر صلاح الدين ، فقد صور له تقي الدين عمر ، صاحب حماة ، القدس «عروساً تُزف إلي من يخلصها من الأعداء ، ويصون شرفها

(١) العماد الاصفهاني : ديوانه : ٣٠٤ .
(٢) الاستار (Hospitalers) : تنظيم صليبي هدف من إنشائه بادىء الأمر الى تقديم الرعاية للحجاج الفرنجة ، ثم صار ذا طابع عسكري . عاشور : الحركة الصليبية ١ : ٥٠١ .
(٣) العماد : ديوانه : ٢٢٣ .

ويفتك أسرها ، وذلك إذ يقول (١) :

جاءتك ارض القدس تخطب ناكحاً ... ياكفؤها ما العُذرُ عن عذرائها
إيه صلاح الدين خذها غادةً ... بكراً ، ملوك الأرض من رقبائها
كم خاطب لجمالها قد رده ... عن نيلها أنْ ليس من الفائها

ولم ينفك الشعراء الشاميون ، بعد معركة حطين وفتح القدس ، يحثون على استئصال الوجود الصليبي من السواحل المحتلة ، وخاصة مدينة صور التي اصبحت مكان تجمع للصليبيين الذين تدفقوا اليها. فقد دعا العماد الصفهاني صلاح الدين إلى إنهاء الاحتلال الصليبي لسواحل الشام كافة ، وأنْ لا يبقي أحداً من الغزاة فيها ، وذلك إذ يقول (٢) :

قل للملك صلاح الدين اكرم من ... يمشي على الأرض او من يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى ... صور ، فإن فُتحت فاقصد طرابلسا
أثر على يوم انطرسوس ذا لجب ... وابعث ليل انطاكية العسَسا
وأخلِ ساحل هذا الشام أجمعه ... من العُداة ومَن في دينه وكسا (٣)

ويستشعر عبدالمنعم الجلياني الخطر المحدق بالقدس عندما عزم الصليبيون على قصدها في حملتهم الثالثة ، فيستنهض همة صلاح الدين لحمايتها والدفاع عنها (٤) :

فحام عن حوطة البيت المقدس لا ... خوف ، وحاشاك منْ خوف ولاضرر
هو الشريف وقد ناداك معتصماً ... فما على مجده من بعدها حذر

واستمر الشعراء في التحريض على الجهاد بعد عصر صلاح الدين ، داعين القادة المسلمين إلى الانتقام من الأعداء ، والفتك بهم ، وتحرير ما تبقي من الأرض في ايديهم . من ذلك قول ابن عقيل الزرعي مخاطباً الملك المعظم عيسى بعد فتحه بانياس (٥) :

(١) العماد : الخريدة : — بداية قسم الشام : ٨٦ .
(٢) العماد : ديوانه : ٢٢٩ .
(٣) الوكس : النقص .
(٤) ابو شامة : الروضتين ٢ : ١٩٤ .
(٥) ابن عقيل الزرعي : المختار من ديوانه (ميكروفلم) ٣٨ .

هم شيدوا باطلا فاهدم قواعدهم واضرموا قبساً ، فابعث لهم شُهبا
وفرقوا السهم ، فاجعلهم له غرضاً وأضرموا النار ، فاجعلهم لها حطبا
قد كنت ترعى لهم حق الجوار وقد جاروا ، فلا ترع من اسبابهم سببا

٣ — **الحرب النفسية** : ومن المواقف التي تنبه اليها الشعراء الشاميون في سياق الدور الذي اضطلعوا به في دعم الأمة في مواجهتها العسكرية ، ما يطلق عليه اليوم «الحرب النفسية» . فقد أدرك الشعراء اهمية هذه الحرب في رفع معنويات الأمة ودعم جبهتها الداخلية ، لذلك تعدوا نقل الأحداث في إطارها المجرد إلى تقديمها في صور تبعث على الثقة وتحقق اغراض الجماعة الإسلامية . فقد استوحى الشعراء قوله عليه السلام ، : «نُصرت بالرعب مسيرة شهر»،(١) عندما صوروا الفزع الذي تثيره سمعة جيوش المسلمين في قلوب الاعداء ، من ذلك قول ابن منير الطرابلسي :

إنْ سار سار ، وقد تقدم جيشه رجف يقصع في اللّها دعارها

ويجرد ابن القيسراني من الخوف والذعر سرايا تنهض نحو مواقع العدو بعد ان تنثني سرايا خيل نورالدين من العيث فيها (٢) :

وإذا سرايا خيله قفلت نهضت سرايا الخوف والذعر

وتقوية لمعنويات الأمة ، لم يفتأ الشعراء يهددون الأعداء بهذه الجيوش كلما استشعروا قوتها . فقد انتشى ابن الساعاتي — ٦٠٤ / ١٢٠٧ بالنصر الذي أحرزه المسلمون في حصن المخاض ، فهدد الأعداء هاتفاً في وجوههم : ان هذه الديار ليست بديار كم فاخرجوا منها (٣) :

أيسكنُ أوطان النبيّين عصبةٌ تحينُ لدى أيمانها وهي تحلفُ

نصحتكم ، والنصحُ في الدين واجب : ذرُوا بيت يعقوب فقد جاء يوسفُ

ويندفع ابن الدهان الحمصي — ٥٨١ / ١١٨٥ إلى وعيد الأعداء الذين ظنوا

(١) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ١٢ : ٩١ .
(٢) د. عادل جابر : شعر ابن القيسراني : ٢٢٩ .
(٣) ابن الساعاتي : ديوانه ٢ : ٤٠٩ .

ويفتك أسرها ، وذلك إذ يقول (١) :

جاءتك ارض القدس تخطب ناكحاً ... ياكفؤها ما العُذرُ عن عذرائها
إيه صلاح الدين خذها غادةً ... بكراً ، ملوك الأرض من رقبائها
كم خاطب لجمالها قد رده ... عن نيلها أنْ ليس من الفائها

ولم ينفك الشعراء الشاميون ، بعد معركة حطين وفتح القدس ، يحثون على استئصال الوجود الصليبي من السواحل المحتلة ، وخاصة مدينة صور التي اصبحت مكان تجمع للصليبيين الذين تدفقوا اليها. فقد دعا العماد الصفهاني صلاح الدين إلى إنهاء الاحتلال الصليبي لسواحل الشام كافة ، وأنْ لا يبقي أحداً من الغزاة فيها ، وذلك إذ يقول (٢) :

قل للمليك صلاح الدين اكرم من ... يمشي على الأرض او من يركب الفرسا
منْ بعد فتحك بيت القدس ليس سوى ... صور ، فإن فُتحت فاقصد طرابلسا
أثر على يوم انطرسوس ذا لجب ... وابعث ليل انطاكية العسَسا
وأخلِ ساحل هذا الشام أجمعه ... من العُداة ومَن في دينه وكسا (٣)

ويستشعر عبدالمنعم الجلياني الخطر المحدق بالقدس عندما عزم الصليبيون على قصدها في حملتهم الثالثة ، فيستنهض همة صلاح الدين لحمايتها والدفاع عنها (٤) :

فحام عن حوطة البيت المقدس لا ... خوف ، وحاشاك منْ خوف ولاضرر
هو الشريف وقد ناداك معتصماً ... فما على مجده من بعدها حذر

واستمر الشعراء في التحريض على الجهاد بعد عصر صلاح الدين ، داعين القادة المسلمين إلى الانتقام من الأعداء ، والفتك بهم ، وتحرير ما تبقي من الأرض في ايديهم . من ذلك قول ابن عقيل الزرعي مخاطباً الملك المعظم عيسى بعد فتحه بانياس (٥) :

(١) العماد : الخريدة : — بداية قسم الشام : ٨٦ .
(٢) العماد : ديوانه : ٢٢٩ .
(٣) الوكس : النقص .
(٤) ابو شامة : الروضتين ٢ : ١٩٤ .
(٥) ابن عقيل الزرعي : المختار من ديوانه (ميكروفلم) ٣٨ .

هم شيدوا باطلا فاهدم قواعدهم واضرموا قبساً ، فابعث لهم شُهبا
وفرقوا السهم ، فاجعلهم له غرضاً وأضرموا النار ، فاجعلهم لها حطبا
قد كنت ترعى لهم حق الجوار وقد جاروا ، فلا ترع من اسبابهم سببا

٣ — الحرب النفسية : ومن المواقف التي تنبه اليها الشعراء الشاميون في سياق الدور الذي اضطلعوا به في دعم الأمة في مواجهتها العسكرية ، ما يطلق عليه اليوم «الحرب النفسية» . فقد أدرك الشعراء اهمية هذه الحرب في رفع معنويات الأمة ودعم جبهتها الداخلية ، لذلك تعدوا نقل الأحداث في إطارها المجرد إلى تقديمها في صور تبعث على الثقة وتحقق اغراض الجماعة الإسلامية . فقد استوحى الشعراء قوله عليه السلام ، : «نُصرت بالرعب مسيرة شهر»(١) عندما صوروا الفزع الذي تثيره سمعة جيوش المسلمين في قلوب الاعداء ، من ذلك قول ابن منير الطرابلسي :

إنْ سار سار ، وقد تقدم جيشه رجف يقصع في اللّها دعارها

ويجرد ابن القيسراني من الخوف والذعر سرايا تنهض نحو مواقع العدو بعد ان تنثني سرايا خيل نورالدين من العيث فيها (٢) :

وإذا سرايا خيله قفلت نهضت سرايا الخوف والذعر

وتقوية لمعنويات الأمة ، لم يفتأ الشعراء يهددون الأعداء بهذه الجيوش كلما استشعروا قوتها . فقد انتشى ابن الساعاتي — ٦٠٤/ ١٢٠٧ بالنصر الذي أحرزه المسلمون في حصن المخاض ، فهدد الأعداء هاتفاً في وجوههم : ان هذه الديار ليست بديار كم فاخرجوا منها (٣) :

أيسكنُ أوطان النبيّين عصبةٌ تحينُ لدى أيمانها وهي تحلفُ

نصحتكم ، والنصحُ في الدين واجب : ذرُوا بيت يعقوب فقد جاء يوسفُ

ويندفع ابن الدهان الحمصي — ٥٨١/ ١١٨٥ إلى وعيد الأعداء الذين ظنوا

(١) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ١٢ : ٩١ .
(٢) د. عادل جابر : شعر ابن القيسراني : ٢٢٩ .
(٣) ابن الساعاتي : ديوانه ٢ : ٤٠٩ .

أنهم آمنون لبعد ديارهم ، فيهددهم ببأس صلاح الدين وسطوته التي بامكانها ان تقتحم عليهم هذه الديار (١) :

لا يغْرُرَنَّ الروم بُعْدُ ديارهم ... إن الخليج لديك أقربُ مَشرعِ
لو ان مثل البحر سبعة أبحرٍ ... من دونهم وأردْتهم لم تُمنَعِ

وترسيخاً للاطمئنان في نفوس الأمة ، فقد تغنى الشعراء بانتصارات المسلمين ، وتحدثوا عنها بلهجة ملؤها الثقة بالنفس ، وقدموها في إطار من التفاؤل والاستبشار . فقد عد ابن القيسراني انتصار المسلمين في الرها سنة ٥٣٩ /١١٤٤ مطلع فجر جديد في مواجهة الغزو الصليبي (٢) :

فتحُ الفتوحِ مبشّراً بتمامهِ ... كالفجر في صدر النهار الآيب

وعبّر ابن منير الطرابلسي عن ابتهاج المسلمين باستعادة مدينة الرها وذلك إذ يقول (٣) :

فتحٌ أعاد على الإسلام بَهجتهَ ... فأفتر مبسمُهُ واهتزّ عطفاهُ

وحين تغنى شهاب الدين محمود بطرد الفرنجة من عكا ، عده فتحاً لم يكن له مثيل من قبل ، لذلك فان النثر والشعر عاجزان عن تصوير عظمته ، وادراك حقيقته (٤) :

يا يوم عكا لقد أنسيت ما سبقت ... به الفتوح وما قد خط في الكتبِ
لم يبلغ النطق حدَّ الشكر منك فما ... عسى يقوم به ذو الشعر والخطب

وكما تغنى الشعراء الشاميون بالانتصارات ، فانهم اعتذروا عن الهزائم التي منى بها المسلمون ، وقللوا من شأنها . فعندما قتل السلاّر قول سنة ٥٠١ /١١٠٨ هبّ ابن الخياط الدمشقي يدفع عن المسلمين ثقل الحادثة ، ويثبت قلوبهم ، ويشد أزرهم ؛ فأطلق لسانه بانذار الصليبيين وتهديدهم بأن

(١) ابن القلانسي : ديوانه : ٣٢ .
(٢) د. عادل جابر : شعر ابن القيسراني : ١١٠ .
(٣) ابن منير : ديوانه : ١٩٦ .
(٤) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ١ : ١٥١ .

يوم الثأر قريب ،، ان الأيام المقبلة ستكون حرباً عليهم ، وذلك إذ يقول(١) :

لا يُطمعُ الأعداءَ يومٌ مسرّهم ... إنّ الرّدى في طيّ ذاك المَطمَع
الثأر مضمون وفي أيماننا ... بيض كخاطفة البروق اللمع
قد آن للدّهر المُضلِ سبيلهُ ... ان يستقيم على الطريق المَهيع
مستدركاً غلط الليالي فيكم ... متنصّلاً من جرمها المُستَفظَع

وعندما هزم المسلمون في معركة البقيعة سنة ٥٥٨ /١١٦٢ ، قال ابن الدهان الحمصي قصيدة اعتذر فيها عن نور الدين مدوحه . وقد استهل الشاعر قصيدته بأبيات تحدث فيها إلى ممدوحه ، ورسم له الطريق إلى إدراك الثأر ، ونزهه من عار هذه الهزيمة ، وجعلها قدراً مقدوراً (٢) :

ظبى المواضي وأطراف القنا الذبلِ ... ضوا من لك ما حازوه من نفلِ
وما يَعيبك ما نالوه من سَلَبٍ ... بالختل ، قد توتر الاسادُ بالحيلِ
وإنما أخلدوا جبناً إلى خُدَعٍ ... إذ لم يكن لهم بالجَيش من قبَلِ
واستيقظوا واراد الله غفلتكُم ... لينفُذَ القدرُ المحتومُ في الأزلِ

وحتى لا تضعف همة المسلمين ، وتنكسر قلوبهم ، فان الشاعر — على الرغم من اعترافه بغلبة الأعداء — يستصغرهم ، ويستصغر النصر الذي حققوه ، ولا يراه شيئاً كبيراً :

بني الأصيفر : ما نلتم بمكركم ... والمكر في كل إنسان أخو الفشلِ
وما رجعتُم بأسرى خساب سعيكم ... غير الأصاغرِ والأتباع والسّفلِ
سَلبتُم الجرد معراةً بلا لُجُم ... والسمر مركوزة ، والبيض في الخللِ

وتثبيتاً للمسلمين ، يضرب ابن الدهان لهم المثل بما كان للرسول عليه السلام وأصحابه في يوم حنين :

لهم بيوم حُنَينٍ أسوة وهمُ ... خيرُ الأنامِ وفيهم خاتمُ الرسلِ

وقد بذل الشعراء الشاميون وسعهم في الإزراء بالصليبيين وقيادتهم ،

(١) ابن الخياط الدمشقي : ديوانه : ٢١٨ .
(٢) ابن الدهان : ديوانه : ٧٠ — ٧٧ .

والاستهانة بأمرهم ، والانتقاص من قدرهم بعد ان ذاقوا مرارة الهزائم . فقد صور ابن قسيم الحموي (توفي بعد ٥٤٠ هـ) بأسلوب ساخر الحيرة التي وقع فيها ملك الروم عندما رأى جيوش عماد الدين (١) :

وأبصر في المفاضة منك جيشاً فأحسن لا يسير ولا يريمُ

وبأسلوب تهكمي لاذع يصور ابن منير الطرابلسي أرض أنطاكية تبتئس أميرها لما رأت ظالمه لها ، وعجزه عن الدفاع عنها (٢) :

لما وعاها سمعُ أنطاكيّة صرتِ الوقار ، وكشّفت أستارها(٣)
فاليوم أضحت تستذم مجيرها من جوره ، وغدت تسذم جوارها
علمت بأن ستذوق جرعة أختها إنْ زرّ أطواقَ الخباءِ وزارها

ويصل الاستخفاف والاستهانة بجند الأعداء الغاية في قول فتيان الشاغوري (٤) لما سَبَيْتَ نساءَهم وقتلتهم ودَّ الذكور بأن تكون إناثا

٤ ـ التحذير من الخطر الصليبي : وينبغي ألا يظن ان الشعراء إذ يستهينون بالعدو يقللون من خطره ، أنهم بذلك حجبوا عن أعين الأمة ما يخفيه المستقبل من أخطار ، واوهموا المسلمين أن التغلب على العدو كان أمراً ميسوراً ، وإنما كانوا في الوقت نفسه مدركين أطماع هذا العدو وأهدافه ، وداعين إلى الوقوف في وجهه بقوة وحزم ، لذلك فان الموقف التالي الذي تبنوه إزاء الصراع هو : تحذير المسلمين من الخطر الذي يمثله الوجود الصليبي على الإسلام : عقيدة وإنساناً و أرضاً . فقد كان ابن القيسراني على وعي تام بالعداوة المتأصلة في نفوس حملة الصليب على الإسلام وأهله ، فصور تحفزهم على قتل المسلمين وامتلاك أموالهم عندما غزوا دمشق سنة ٥٢٣ /١١٢٩(٥) :

(١) ابن عساكر : تاريخ دمشق (ميكروفلم) ١٦ : ٢٣٣ .
(٢) ابن منير : ديوانه : ٢١٦ .
(٣) سرا الشيء عنه : نزعه والقاه .
(٤) فتيان الشاغوري : ديوانه : ٦٩ .
(٥) د. عادل جابر : شعر ابن القيسراني : ٣٥٨ .

سَرَوا لينتهبوا الأعمار فانتُهبُوا قتلاً ، ويغتنموا الأموال فاغتُنمُوا

ووجّه ابن قسيم الحموي الأنظار إلى اطماع ملك الروم في امتلاك بلاد الشام كلها عندما هاجم شيزر ،وحاول احتلال حماة سنة ٥٣٢ /١١٣٨ (١):

وما جاء ملكُ الروم الا ليحتوي حماة ، وما يسطو على الأسد الكلب
أراد بها أن يملك الشام عنوةً وقد غُلبت عنه الضراغمة الغُلبُ

ويصور ابن منير الطرابلسي خطورة هؤلاء الغزاة الوافدين على جماعة المسلمين ، حتى كادت البلاد تخلو من أهلها لولا دفاع نورالدين عنها (٢):

لو لم يقم منصلتاً دونه لم تلق في أقطاره مسلما

وإيماناً من ابن منير بوحدة الأرض الاسلامية ، لم ينفك عن تبصير المسلمين بأن هذا العدو سيدهم العراق (٣) وأنه يشكل خطراً على الديار الحجازية(٤):

لو لم يكن دون منىً فات المُنى وأقعد الفائز من قوامها
وامتلك ماء مكةٍ وراضعٍ يقصر باعُ الدهر عن فطامها
وصار كالجسر الجسارُ وخلا من أهله الأشرف من مقامها

وصدق ابن منير ، فقد طمع الغزاة في غزو الديار المقدسة ،وعقدوا العزم على قصد المسجد النبوي الشريف ، إلا أن وقوف صلاح الدين في وجوههم ، وتصديه لهم قد وضع حداً لأطماعهم ، وفي ذلك يقول ابن الساعاتي (٥):

لولاك امّ البيت غير مُدافعٍ وأسال مسيَل نداه في بطحائه

وقد عبر عبدالمنعم الجلياني تعبيراً صريحاً عما كان يضطرم في نفوس الغزاة من كراهية شديدة للمسلمين ، حتى إنهم طمعوا في أسرهم وسبيهم ، فاصطحبوا معهم التجار ليبيعوهم في أسواق النخاسة ، كما صور الشاعر مطامعهم التي لا حدود لها في امتلاك الديار الإسلامية ، وانتهاب خيراتها ،

(١) ابن عساكر : تاريخ دمشق (ميكروفلم) ١٦ : ٢٣٣ .
(٢) ابن منير : ديوانه : ٢٥٨ .
(٣) المصدر السابق : ٢٤٩ ، ٢٦٣ .
(٤) نفسه : ٢٣٥ .
(٥) ابو شامة : الروضتين ٢ : ٢٠٤ .

وذلك إذ يقول (١) :

أتـوا بجبـال (٢) أبرمت لإسارنـا فستُناهم فيهـا قطيعـاً مجـدّدا
وساموا تجـاراً تشتـرينـا غـواليـاً فبعناهمُ بالرخص جهراً على الندا
وقد أقطع الكندُ العـراق موقّعـاً فأودع سجناً وسط جلق مُوصدا
وأقسم أن يسقى بـدجلـة خيلـه فما ورد الأردن إلا مصفّـدا

٥ ـ الدعوة إلى الأخذ بأسباب القوة والوحدة :

أدرك الشعراء الشاميون ان ضعف المسلمين وتفرقهم كان هو الباب الذي ولج منه الغزاة إلى ديار الإسلام ، ومن ثمّ تعالت دعواتهم إلى الأخذ بأسباب القوة والوحدة ، إيماناً منهم بأن ذلك هو السبيل الوحيد لصد المعتدين ، وتحرير البلاد منهم . وقد اتخذت هذه الدعوات مظاهر شتى ، منها استهلال القصائد الجهادية بمطالع تمجد القوة ، وتتغنى بها . فعندما فتح عمادالدين زنكي الرها سنة ٥٣٩ /١١٤٤ مدحه ابن القيسراني بقصيدة افتتحها ببيت مجد فيه الاحتكام إلى السيف في مقارعة الأعداء ، وتأسيس الدول (٣) :

هو السيف لا يغنيـك الى جـلادهُ وهل طـوق الأمـلاك الا نجادهُ

وعندما هزم المسلمون في حصن البقيعة سنة ٥٥٨ /١١٦٢ ، استهل ابن الدهان الموصلي الحمصي قصيدته التي قالها في الاعتذار عن هذه الهزيمة بمطلع بين فيه لنورالدين أن القوة هي السبيل لادراك الثأر من الأعداء (٤) :

ظُبـا المواضي وأطراف القنا الذبـل ضوامن لك ما حازوه من نَفَـل

ويستوحي فتيان الشاغوري أجواء الانتصارات التي احرزها المسلمون بقيادة صلاح الدين سنة ٥٨٣ /١١٨٧ ، فيستهل قصيدة قالها في تلك المناسبة بمطلع يوحي بشعور الغلبة ، وبالإيمان بالقوة سبيلاً إلى بناء الممالك واحتيازها (٥) :

---

(١) المصدر السابق ٢ : ١١٧ .
(٢) ورد في الأصل (كجبال) ، ولا يستقيم به المعنى .
(٣) د. عادل جابر : شعر ابن القيسراني : ١٤٥ .
(٤) ابن الدهان : ديوانه : ٧٠ .
(٥) فتيان الشاغوري : ديوانه : ١٤٠ .

تُبنـــى الممالك بـــالوشيج الأسمـــــر والبيض تلمع في العجاج الأكدر

وقد أخذ الشعراء الشاميون يقارنون بين أحوال بلاد الشام ، وهي ضعيفة مفككة ، وأحوالها بعد ان تحصنت بالقوة ، ويوجهون أنظار الأمة إلي المكاسب التي تحققت لهم جراء الأخذ بأسباب القوة ، فهذا ابن القيسراني يقارن بين عهدين : عهد نور الدين الذي سهل للمسلمين طريق الجهاد ، وكسر حاجز الخوف في نفوسهم ، وعهد الحكام الذين تخاذلوا عن مواجهة العدو (١) :

رددت الجهـــاد الصعب سهلا سبيله ويا طالمـــا أمسى ومسلكه وعـــرُ
وأطمعت في الإفرنج مَن كان يأسه تخوف أن يعتاده منهم فكـــرُ
وأقحمت جرد الخيل أعلى حصونها ولولاك لم يهجم على كافر كفُرُ
وحين أشاد ابو المرهف النميري — ١١٩٢/٥٨٨ بصلاح الدين ، رسم صورة زاهية لما آلت اليه بلاد الشام بعد ان تولى هذا القائد امرها ، وشد عراها ، وحصن نواحيها (٢) :

ولما ملكـــت الشام عزت ربـــوعُـــه ونال المنى سكانه والمـــؤمـــلا
أزلت به التكدير من كل مَـــــوْرد وأخصبت منه كل ما كان أمحلا
وأضحى بك الإسلام عزة جانـــــب كأن له فوق المجرة معتـــــلى
شددْت عراهُ بعد طول انفصامها وحصنت منه كل ما كان مُهملا

غير أن الشعراء الشاميين رأوا أن هذه القوة لاتستكمل بغير الوحدة الجامعة بين انحاء بلاد الشام وغيرها من البلاد الإسلامية ، لذلك لم يفتأوا يحثون الأمة على ضم صفوفها ، وحشد قواها لمواجهة العدو المشترك . فقد كتب اسامة إبن منقذ إلي أبي الغارات طلائع بن رزيك قصيدة دعاه فيها إلى موالاة نور الدين ومعاضدته ، وشد أزره (٣) :

(١) د. عادل جابر : شعر ابن القيسراني : ١٩٥ .
(٢) العماد الأصفهاني : خريدة القصر — قسم العراق ٢ : ٤٦٧ .
(٣) اسامة بن منقذ : ديوانه : ٢١٥ .

واشُـددْ يـديـك بـــود نو رالدين ، والق بـــه الرجـالا
فهـــو المُحـــامي عـــن بـــلا د الشام جمعاً أنْ تُـــذالا

وقد حث عرقلة الكلبي — ١١٧٢/٥٦٧ نورالدين على قصد مصر ، ولم يرَ أنَّ ثمة مجالا للتباطؤ عنها (١) :

إلى كم ذا التوانـي في دمـشق وقد جاءتكم مصر تهـادى
عـروس بعلـهـا أسدٌ هصـور يصيـد المعتدين ولن يُصـادا
ألا يـا معشـر الأجنـاد : سيـروا وراء لوائه تلـقـوا رشـاد

وعندما تمّ لنورالدين توحيد مصر والشام ابتهج الشعراء وعدوا ذلك نصراً للاسلام ، من ذلك قول العماد الاصفهاني (٢)

والسنّـة أتّسقتْ والبدعة انمحقتْ وعاودت دولة الإحسان والكرم
فـملك مصر وملك الشام قد نُظمـا في عقد عز من الإسلام منتظـم

ولما دب الشقاق بين افراد البيت الأيوبي ، واستحكمت الوحشة بينهم بعد وفاة صلاح الدين ، نهض الشعراء الشاميون يدعون إلى نبذ الخلاف ، ومن هؤلاء الرشيد النابلسي الذي قال قصيدة ذكر فيها ما جرى بين الأيوبيين ، وربأ بهم أن ينقسموا على انفسهم ، وأن تتفرق كلمتهم هذ التفرق المنكر (٣) :

لـم يكن لائقاً بنجـل صلاح الديـن جـبـانٌ معـذوقة بفسـاد
حـبـاش لله مـا عهـدنا النجوم الزهر يُدعى لشمـلـهـا بـبـداد
أرأيـت الأشبـال يخـرج يـومـاً خُلُقُـها عـن خـلائق الآساد ؟
أيمّـا والـسـيـد بـه رحـم الله البـرايـا وأيمـا اولاد

ويستجيش الرشيد النابلسي مشاعر بني ايوب ، فيذكرهم بوشائج القُربى ، مضمناً ذلك دعوة إلى نبذ الخلاف ، وتسخير قوتهم لجهاد الأعداء :

(١) عرقلة الكلبي : ديوانه : ٣٢ .
(٢) العماد الأصفهاني : ديوانه : ٣٨١ ، ٣٨٢ .
(٣) العيني : عقد الجمان (ميكروفلم) ١٣/١ : ١٨٩ .

آل أيـــوب طـال بـــاع المعـــالي إنّ جنحتـــم لرقّـة الأكبـــاد
جـــردوها عـــزائماً قاطعـــات ليـــس تمضي السيوف في الأغماد
لا تنسُوا في رعـــايـة الدين والدّنيا يذب عن الهـدى وذيـــاد

وقصيدة الرشيد تمثل حرصه على وحدة الجماعة الإسلامية ، وإخلاصه لها تمثيلاً صادقاً ، ولكن هذا الصوت قد ضاع في غمار الخلافات التي استطار شررها بين ذوي القُربى .

خاتمة :

تم في الصفحات السابقة دراسة جانبين من جوانب الشعر الشامي المتصل بالحروب الصليبية ، هما : مواكبة الشعر لأحداث الصراع ، ودور الشعر في المواجهة . وقد بينت الدراسة أن الشعراء الشاميين واكبوا الحروب الصليبية في مراحلها المختلفة ، بيد أن هذا الشعر كان قليلا في مرحلة الهزائم ، وأنه كلما سارت الحركة الجهادية صعداً تبارى الشعراء في تسجيل الانتصارات والتغني بها ، حتى غدا كثير من قصائدهم معرضاً للانتصارات التي أحرزها المسلمون في سياق حركة الجهاد ، وليس تصويراً لمعركة معينة ، مما حال بينهم وبين الولوج في طبيعة كل معركة ، لتقدموا وصفاً تفصيلياً لها .

وبينت الدراسة أن الشعراء الشاميين نقلوا صورة أمينة للصراع ، حين قدّموه في إطاره الإسلامي الشامل ، لذلك كثرت في قصائدهم المعاني المستمدة من عقائد المتحاربين . وظلّت أنظار الشعراء تستشرف المستقبل ، فكلما تحقق نصر رتّبوا عليه نصراً آخر ، ومن ثم لم يألوا جهداً في الحث والتحريض ، ودعوة الأمة لمواصلة الجهاد لتحرير البلاد . وطمأنة لجماعة المسلمين ودعماً لمعنوياتهم ، فقد قدم الشعراء الانتصارات الإسلامية في غلالة الفرح والاستبشار ، كما اعتذروا عن الهزائم التي مني بها المسلمون ، وقللوا من شأنها ، وهددوا الصليبيين ، وأزروا بهم ، وحطوا من قدرهم . غيرأنهم — في مقابل ذلك — لم يغفلوا اخطار الغزاة وتهديداتهم للإسلام : عقيدة وإنساناً وأرضاً ، لذا دعوا إلى الأخذ بأسباب القوة والوحدة الجامعة التي تُحصّن الأمة ، وتحميها .

المصادر والمراجع مرتبة هجائياً حسب عنوان الكتاب

اولا : المصادر المخطوطة

١ ــ تاريخ مدينة دمشق ، الحافظ أبو الحسن علي بن حسن المعروف بابن عساكر ، ميكروفلم رقم ١٠١٧ ، مكتبة الجامعة الأردنية .

٢ ــ عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان ، بدرالدين محمود بن احمد العيني ميكروفلم رقم ٣٣٤ تأريخ ، معهد احياء المخطوطات العربية ، القاهرة .

٣ ــ عقود الجمان في شعراء هذا الزمان ، أبو البركات مبارك بن الشعار الموصلي ميكروفلم رقم ٣٣٩ تاريخ ، معهد احياء المخطوطات العربية ، القاهرة .

٤ ــ كنوز الذهب في معرفة تاريخ حلب ، احمد بن ابراهيم الطرابلسي ، ميكروفلم رقم ٣٥٥١١ ، دار الكتب المصرية ، القاهرة .

٥ ــ المختار من ديوان ابن عقيل الزرعي ، همام الدين احمد العامري الزرعي ، ميكروفلم رقم ٢٦١٨ ، طوبقبو سراي ، تركيا .

ثانياً : المصادر والمراجع المطبوعة :

٦ ــ الاعتبار ، أسامة بن منقذ ، تحقيق فيليب حتي ، مطبعة جامعة برنستون ، ١٩٣٠ .

٧ ــ الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ، د. عمادالدين خليل ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٠ .

٨ ــ بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ، د. عبدالجليل عبدالمهدي ، دار النشر ، عمان ، ١٩٨٩ .

٩ ــ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ، عزالدين ابن الاثير ، تحقيق عبدالقادر طليمات ، دار الكتب الحديثة ومكتبة المثنى ، القاهرة بغداد ، ١٩٦٣ .

١٠ ــ تاريخ دمشق ، ابن القلانسي : ابو يعلى حمزة بن أسد ، تحقيق د. سهيل زكار ، دار حسان ، دمشق ، ١٩٨٣ .

١١ — تاريخ العظيمي ، محمد بن علي بن محمد ، وقدنشر بالعربية تحت عنوان :

١٢ — الحركة الصليبية ، د. سعيد عبدالفتاح عاشور ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ط ٢ ، ١٩٧٦ .

١٣ — خريدة القصر وجريدة أهل العصر ، العماد الأصفهاني :

أ — قسم شعراء الشام ، تحقيق د. شكري فيصل ، المجمع العلمي العربي، دمشق ١٩٥٥ .

ب — قسم شعراء العراق ، تحقيق محمد بهجة الاثري ، المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٦٤ .

١٤ — ديوان اسامة بن منقذ ، تحقيق د. احمد احمد بدوي ، عالم الكتب ، القاهرة ؟

١٥ — ديوان ابن الخياط الدمشقي ، تحقيق خليل مردم بك ، المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٩٥٨ .

١٦ — ديوان ابن الدهان الموصلي ، تحقيق عبدالله الجبوري ، مطبعة دار المعارف ، بغداد ، ١٩٦٨ .

١٧ — ديوان ابن الساعاتي ، تحقيق أنيس المقدسي ، المطبعة الامريكانية ، بيروت ١٩٣٨ .

١٨ — ديوان عرقلة الكلبي ، تحقيق احمد الجندي ، مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٧٠ .

١٩ — ديوان العماد الأصفهاني ، جمعه وحققه ناظم رشيد ، جامعة الموصل ١٩٨٣ .

٢٠ — ديوان فتيان الشاغوري ، تحقيق احمد الجندي ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٩٧٦ .

٢١ — ديوان ابن منير الطرابلسي ، جمعه وقدم له د. عمر التدمري ، دار الجيل ومكتبة السائح ، بيروت وطرابلس ، ١٩٨٦ .

٢٢ ـ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، ابو شامة المقدسي
أ ـ الجزء الأول ، تحقيق محمد حلمي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
ب ـ الكتاب كاملا ، دار الجيل ، بيروت ، ؟ وهو مصور عن طبعة مصرية قديمة .
٢٣ ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب ، كمال الدين ابن العديم الحلبي ، تحقيق سامي الدهان ، المعهد الفرنسي ، دمشق ، ١٩٦٨ .
٢٤ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ، احمد بن علي المقريزي ، نشر مصطفى زيادة ، القاهرة ط ٢ ، ١٩٥٦ .
٢٥ ـ شعر ابن التيساني ، جمع وتحقيق ودراسة ، د. عادل جابر ، رسالة دكتوراه ، الجامعة الاردنية ، ١٩٨٧ .
٢٦ ـ صدى الغزو الصليبي في شعر ابن التيساني ، د. محمود ابراهيم . المكتب الإسلامي ومكتبة الأقصى ، عمان ودمشق ، ١٩٧١ .
٢٧ ـ العبر في خبر من غبر ، شمس الدين الذهبي ، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد ، دائرة المطبوعات والنشر ، الكويت ١٩٦٠ ـ ١٩٦٣ .
٢٨ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ابن حجر العسقلاني ، تحقيق طه سعد وزميليه ، مكتبة الكليات الازهرية ، القاهرة ، ١٩٧٨ .
٢٩ ـ فوات الوفيات ، محمد بن شاكر الكتبي ، تحقيق د. احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٣ .
٣٠ ـ الفتح القسي في الفتح القدسي ، العماد الاصفهاني ، تحقيق محمود صبح ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
٣١ ـ الكامل في التاريخ ، عز الدين ابن الاثير ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩ .

٣٢ — كنز الدرر وجامع الغرر ، ابن أيبك الداوادارى ، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور ؟ ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
٣٣ — معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩ .
٣٤ — مفرج الكروب في اخبار ملوك بني أيوب ، جمال محمد بن واصل تحقيق جمال الدين الشيال ، دار احياء التراث القديم ، القاهرة ، ١٩٥٣ .
٣٥ — النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ابن تغري بردي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٥ — ١٩٣٦ .
٣٦ — النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، بهاءالدين بن شداد ، تحقيق جمال الشيال ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٤ .